تدريب الخلق

الروماني

لوديع الضبع

ما أحوجنا في هذه الأيام المكفهرة التي تتطاحن فيها أمم الأرض بجميع ضروب الأسلحة وآلات الهلاك والتدمير ، ويناضل رجال السياسة بعضهم بعضاً دون التقيد في أغلب الحالات بقيود أدبية أو وسائل شريفة — ما أحوجنا الآن الى أن نهمل ولو الى حين قصير أخبار المعارك والحروب والنافثات والدسائس ونشغل أنفسنا بمعضلات الحياة الاجتماعية العامة أو الخاصة والمسائل الاقتصادية والخلقية الى غير ذلك من الشؤون التي قد تنير السبيل للنشء اليوم فيرى كيف تقوم أسس الحضارة الحقيقية وأسباب عظمة الشعوب والدول. وليس ثمة بحث أروع أو أمتع أو أجدى في هذه الناحية من أساليب الرومان القدماء أيام الجمهورية الأول في تربية النشء وتهذيب خلقه وتدريبه لمجابهة مشكلات الحياة العديدة خاصة كانت أم عامة

ومع ان الرومان الذين شادوا أكبر امبراطورية عرفها التاريخ في العصور القديمة قد اندثروا وضاعت معالم امبراطوريتهم المترامية الاطراف إلا انهم ما زالوا حتى اليوم يؤثرون تأثيراً عميقاً مباشراً أو غير مباشر في حياة الأمم الحديثة ، وما زلنا نتفيء بعبقريتهم في التشريع ووضع القوانين . ونتمتع عن طريقهم بأفضل مبتكرات العقل الاغريقي من فن وآداب وعلوم . ولقد قال المستر أسكويث أحد رؤساء الوزارة البريطانية السابقين معبراً عن دين العالم الكبير للرومان « لقد شيدت روما سواء في الآداب أو الفنون أو الفلسفة أو الاديان الجسر الذي انتقل فوقه خير ما خلقه العالم القديم من الافكار والآثار الى العالم الوسيط ومن ثم الى العالم الحديث » . ولكي ندرك ادراكاً صحيحاً الأسس التي قامت عليها الامبراطورية الرومانية ، ونفهم جدارة الرومان عن حق بما أصابوه من عظمة ومجد وخلود يجب ان ندرس حياة الرجال والنساء العاديين فيهم في حياتهم البيتية وأعمالهم العادية ونتعرف مبادئهم ونقائصهم فهم الذين يكونون الأمم ويصنعون آدابها وشرائعها

كانت التربية الرومانية تقوم على أساس سليم في تكوين الخلق فهي تبدأ وتنتهي في البيت. وكان أثر الأم في هذه الناحية لا يقل خطراً عن أثر الدين . وكان مركزها وطيداً في البيت . فلها الطاعة و كان الثاني في الأسرة بعد الأب

وهنا يجدر بنا أن نذكر شيئاً عن نظام الاسرة familia التي كانت أساس المجتمع الروماني والتربية الرومانية . فلم يكن يعنى بها على وجه الدقة ما يقصد عادة بكلمة أسرة الآن ، بل ربما كانت العشيرة أقرب اليها في مدلولها ، أي جماعة متقاربة من الافراد يعتمدون على ما تنتجهُ الارض لهم . فلم يكن يقصد بها الاب والام وأولادهما وحسب . بل كانت تشمل أيضاً الاتباع سواء أكانوا أحراراً أم أرقاء . وكان الاحرار يتألفون من العملاء الذين انضموا الى الاسرة في مركز أدنى واعتمدوا عليها في معاشهم وحمايتهم ، أما الارقاء فكانوا يتألفون من أسرى الحروب وأولادهم او الذين فقدوا حريتهم لعدم تسديدهم ديونهم

***

وكانت الاسرة تشمل ايضاً ارواح العشيرة الالهية التي كان يعتقد الرومان انها تسكن معهم في المنزل أو على الأرض الزراعية وهي التي كان ينتظرمنها أفراد العشيرة العون والحماية في جميع مراحل الحياة . وكان لكل روح منها اسم وعمل خاص وأهمها فستا Vesta روح البيت وبيناطس Penates روح المخازن . ومع ان هذه الارواح لم تكن في مرتبة الآلهة الا ان عقل الروماني البدائي كان يعدها عضواً حقيقياً عاملاً كأي عضو بشري من أعضاء الاسرة او العشيرة

ولان الظروف الخارجية التي أحاطت روما ولا سيما مركزها الجغرافي الذي جعلها معرضة للهجمات المستمرة من جيرانها الاقوياء كانت عاملاً هامًّا في تدريب أهلها في شؤون الحرب والسياسة منذ فجر تاريخهم . فقد ولدت في أهلها سجيتين خلقتا فيهم روح الصمود للحوادث الجسام التي كادت تعصف بمدينتهم ، تلك الروح التي كانت تخرجهم من كل كارثة انتابتهم أو ملمة حلت بهم وهم أعظم قوة وأثبت جناناً وأقدم وأصلح لاعمال الحرب والغزو . وهاتان السجيتان اللتان تعبران تعبيراً دقيقاً عن الخلق الروماني في أكمل مظاهره وأسمى ألوانه هما النظام والواجب أي سجية الطاعة المطلقة لولاة الامور والسلطات الشرعية وهي لازمة للحكم الصالح وسجية الشعور بالواجب وهو أساس قوة الدولة وتقدمها

وكان الروماني يعلم مآثر الفضائل الكبرى في البيت اولاً فقد كان نظام الاسرة الرومانية الذي جمع بين البساطة المتناهية والمقتضيات العملية يقضي بخضوع جميع أفرادها خضوعاً مطلقاً لرئيسها وهو الاب والزوج . واذا كان هنالك أكثر من أسرة واحدة تعيش معاً فيكون رئيس العشيرة وحاكمها المطلق هو اكبر الآباء والازواج فيها

وكانت روما في بدء نشأتها تستخدم كقلعة تعد اليها أسرات الفلاحين في أزمنة الخطر فقط حيث تتقن منازل بقربها فوق آكامها المنيعة . وكانت الاسرة تحترف الزراعة ويتولى كل فرد منها عملاً معيناً فكان ربها يدير دون رقيب او حد من سلطته جميع اعمال

المزرعة التي يملكها ، ويفصل في جميع المنازعات التي قد تقوم بين أفراد الاسرة ويوقع ما يراه من عقاب عادل على كل ذنب او هفوة ترتكب . اما اعمال المنزل الضرورية كطبخ الطعام وغزل الصوف للابس افراد الاسرة فقد تركت لزوجته وبناته . ونتج عن ذلك ان صار للزوجة بمضي الزمن نفوذ عظيم ، وان كان نفوذاً غير مباشر في الحياة الرومانية الاجتماعية أضف الى هذه الواجبات واجبات اخرى ينهض بها أفراد الاسرة جميعاً لاعضائها الروحيين الذين كانوا يعتمدون عليها في حفظ صحتهم وثروتهم ، فكان الجميع يقومون كل يوم بشكل بسيط من أشكال التعبد ، وفي أيام معينة من السنة لها تواريخ معلومة كانوا يحتفلون بأعياد خاصة كعيد الحصاد او بذر البذور او قطف الفاكهة لتكريم آلهتها وذلك في احتفالات دينية يشترك فيها عادةً جميع أسرات الاقليم الواحد. وكان يصحب هذه العبادات ألعاب ومسابقات رياضية يشترك فيها الشبان حتى تكون الحياة أقل ملالاً وسآمة وأبعد من الضجر والكآبة

ومن سوء الحظ لم تخلف سجلات معاصرة لتلك الأزمنة الاولى عن نوع التربية التي كانت تغرس في نفوس النشء الروماني . ولكن لا ريب في أن نضال رومة الطويل المتشعب مع جيرانها اولاً ، ثم مع منافسيها الاقوياء داخل ايطاليا ثانياً ، ثم الخطر الذي ظل يلازمها فترة طويلة من الزمن في كفاحها ضد قرطاجنة ثالثاً ، كل هذا كان عاملاً كبيراً في توجيه الفضائل والسجايا التي كان يرغب أن يتصف بها الشباب الروماني وجهة حربية ، فكان يعنى عناية خاصة بتدريبه على الصفات التي تمكن المواطن من الصمود امام العدو والتغلب عليه مهما يكلفه ذلك من جهد وتضحية . ولم يكن في وسع الرومان وقتئذٍ ان يعنوا بالفنون والآداب والفلسفة كما عني بها الاغريق ، فقد كانوا لا يخرجون من حرب حتى يدخلوا أخرى تحدق بهم إبانها الأخطار الداخلية والخارجية على السواء . فقد وكرت روما قواها جميعا وحشدت كل جهدها خلال نضالها الشاق الطويل في سبيل البقاء ، ذلك النضال الذي انتهى بأن أصبحت سيدة العالم المعروف وقتئذٍ

فنعرف من كتابات كاتو عن التربية الرومانية وخطاباته لابنه والفصل الذي خطه تيتوس ليفيوس عن سيرته ان الشجاعة الجسمية هي الفضيلة الاولى التي وجه الرومان جل اهتمامهم لغرسها في نفوس أبنائهم ومع ذلك فلم يقصر كاتو مثلاً على تدريب ابنه على الركوب والملاكمة والعوم بل رماه بنبل في أن يبتعد عن كل ما يشين . وكان هو شديد الحذر في ألا ينطق بكلمة بذيئة واحدة امام ابنه كأنه ماثل في حضرة الآلهة

ولا شك ان الرومان كانوا يعنون بثقافة العقل ورياضة الخلق عنايتهم بغرس الشجاعة والنظام والواجب . ويرجح جداً انهم كانوا يبدأون بتلقين الفتيان في سن السابعة تقريباً مبادىء الخاصة بواجباتهم نحو الدولة و آلهة قومهم واجباتهم نحو أسرهم وأرواحها الحارسة . فكان يسمح

لأولاد الأسر الطيبة ان يصحبوا آباءهم إلى السيناتو لسماع الخطب الرائعة التي كان يرثى بها عظماء المدينة بل كان يسمح لهم ايضاً في وقت ما بالدخول لاستماع ما يدور فيه من نقاش وخطب

ويروي كاتو قصة طريفة توضح اهتمام الرومان بغرس واجب خدمة الدولة في نفوس الأولاد ، تتلخص في أن ولداً اصطحب أباه الى مجلس الشيوخ ، وعند رجوعه سألته أمه في شيء من الفضول وحب الاستطلاع عن الامور التي دارت حولها مناقشات « آباء السيناتو » فأجابها الابن انهُ محرم عليهِ تحريماً قطعاً أن يدلي بشيء منها لأحد . فما عمل هذا الجواب الا ان زاد فيها شهوة الاستطلاع فأخذت تشدد النكير وتلح عليهِ في إخبارها . وأخيراً لما ضاق ذرعاً بها فتق له ذهنه الحاد أحدوبة رأى فيها كاتو مخايل النجابة ودلائل الفطنة والذكاء . ذلك ان الولد أخبرها ان السيناتو كان يتداول في : هل أفضل للدولة ان يتخذ الرجل لنفسه امرأتين او ان المرأة الواحدة تتخذ لها بعلين

فجزعت الأم للامر وأخبرت صديقاتها المتزوجات . وما جاء اليوم التالي حتى هرع عدد كبير من الزوجات الى دار السيناتو يلتمسن ويلححن في الالتماس ان يخول لكل امرأة ان تتزوج من رجلين بدلاً من ان يأذن لرجل في الاقتران بزوجتين

ولم تذهب دهشة اعضاء السيناتو من ذلك الالتماس العجيب الا بعد ان أفضى لهم الولد بقصته ! ومنذ ذلك الحين لم يؤذن لولد آخر غير ابن يحضر جلسات المجلس اذ رئي مكافأته على أمانته وفطنته . وان هذه القصة لتدل دلالة واضحة على نوع الفضائل التي كان يحبب غرسها في النشء حتى يتدرب من صغره على خدمة الدولة والعناية بخيرها العام

وكانت فضائل النظام والخضوع وادراء الواجب ماثلة على الدوام أمام الروماني في حياته العائلية وكفرد في الدولة . فقد كان للأب سلطان مطلق على زوجه وأولاده ولكن كان هنالك عرف قوي مانع يمنعه من أن يستخدم تلك السلطة بطريقة تسيء سمعته غشوم . فقد كانت التقاليد الرومانية الواجبة الاحترام والتنفيذ تقضي عليه ان يستشير رأي مجلس من الاقارب قبل ايقاعه أية عقوبة صارمة لذنب كبير يرتكبه أحد أفراد أسرته وكذلك كان سلطانه المطلق على عماله أو عبيده المعتقين يُحدّ بعادات الاحترام المتبادل التي أصبحت فيما بعد جزءاً من القانون . وحتى عبيده كان يلزمه العرف ان يعاملهم معاملة أشخاص لازمين لحياة العشيرة . بل كانوا يشتركون الى درجة ما في عبادات الاسرة الدينية

وكان نظام الدولة في رومة يشبه في وجوه عديدة نظام الاسرة وأشدها وضوحاً في هذا النظام هو سلطان رئيس الدولة سواء أمنكّ كان أم قنصلاً أم حاكماً فليم . ذلك السلطان الذي لا حدّ له يحمي جميع مصالح الحكومة . فكما ان رب الاسرة سلطة مطلقة على جميع افرادها . كذلك خوّل الملك ثم قنصلا الجمهورية سلطة لا حدّ لها على جميع

المواطنين . وكان يعبر عن سلطة رئيس الدولة بكلمة imperium ، وهي كلة لا تزال شائعة الاستعمال في اشكال شتى ومعانٍ مختلفة في اللغات الاوربية

وكانت تعبر هذه الكلمة imperium الروماني أكثر من أي اصطلاح آخر عن فكرة النظام في الدولة وهو الايمان المتوارث جيلاً بعد جيل بوجوب الخضوع خضوعاً مطلقاً للسلطات الشرعية واطاعتها طاعة عمياء . وكان العرف النافذ يقضي ايام الجمهورية بانتخاب صاحب السلطان بشرط أن تظهر الآلهة بعلامات معينة طيبة موافقتها على ذلك الانتخاب

وكانت رموز وظيفته عصيًّا وفؤوساً يحملها «اللكتورين» أمامه أينما حل وذهب. وهي رموز تذكر الروماني أن الواجب الاول على كل مواطن هو الطاعة المطلقة للسلطة القائمة ، أما السلطة غير الشرعية كتلك التي جاءت عن طريق التزوير أو التهديد والعنف فليس لها سلطان على احد ، ويجب ان تقاوم حتى تزول . وقد منح رئيس الدولة بموجب هذا السلطان سلطة مطلقة في الفصل في القضايا والمنازعات بين الافراد وفي اصدار الاحكام والعقوبات حتى عقوبة الموت كذلك . وهنا ايضاً كان يتدخل العرف فينظم هذه السلطة حتى لا تستخدم استخداماً مستبدًّا غشوماً إذ قضى بأن يستشير اعضاء السيناتو وان لم يجبره على ان يعمل بما يشيرون به. فكانت ممارسة السلطة والاحتفاظ بالنظام مقرونين على الدوام بروح الواجب والتزامه

ونرى حب الرومان للنظام والعدالة وقيام كل فرد بواجباته مدنية كانت او عسكرية إبان الحروب . فقد كان يفرض على المواطنين الاحرار جميعاً سواء كانوا ينتمون الى طبقات ممتازة او غير ممتازة الانخراط في الجيش كواجب وطني ؛ ويدفعون من الضرائب كل على قدر طاقته ما كان ضروريًّا للاغراض الحربية

وكان جميع الرومان يخدمون في الجيش بدون مرتب . وكان اكثر الناس يحملون اكبر الاعباء إذ كانوا يعتبرون ان لهم نصيباً اكبر في الدولة . وكان عليهم ان يشتروا من مالهم ما يحتاجون اليه من معدات حربية ما عدا الخيل فقد كانت الدولة تجهزهم بها لارتفاع أثمانها . وكانوا يوضعون في الصفوف الامامية أثناء القتال . اما افراد الطبقات الفقيرة وهم يؤلفون عادة المشاة فكانوا يقفون في المؤخرة اذ لم يكن في متناول يدهم ان يجهزوا انفسهم الا بأبسط أسلحة القتال وأقلها كلفة. وبذا روّض الجميع أنفسهم على مبادىء الواجب والنظام حتى أصبحت الطاعة والخضوع واحترام السلطة القائمة والثبات والاقدام أوقات الخطر عادات وسجايا مغروسة في نفوس الرومان على مكرة أبيهم

وبهذه المناقب الرفيعة والفضائل الكبرى أثبت الرومان المعلمون قول أمير الشعراء

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا